

مُجمَل ورقة بحثية:
تجليات العنف في الخطاب السوسولوجي
قراءة في تنظيري حنة أرندت وبيير بورديو
لؤي خزعل جبر

كآلاف أخرى من المفاهيم والمصطلحات المركزية ، لازلنا نتعامل مع العنف بتبسيطة ساذجة ، دون إدراك لعنفه
الفكري ودلالته الإنسانية . وفي هذه الورقة سنحاول قراءة هذا المفهوم عبر منظورين كبيرين ، قراءة إجمالية أولية ،
تسلط الضوء على الخطوط العامة للمنظورين ، بهدف إثارة التفكير في مفهوم غاية في الأهمية والخطورة .

.....
أرندت : عُنف البنية

حنة أرندت (1906- 1975) (Hannah Arendt) ، منظرّة سياسيّة ألمانيّة ، تعد من أعمدة الفلسفة السياسية العالمية
. درست الفلسفة في جامعة ماربورغ ، عند الفيلسوف العظيم مارتن هيدغر ، وكانت طالبته الأثيرة . هربت من
ألمانيا خلال حكم النازية ، متوجهة إلى باريس ، لتستقر في الولايات المتحدة . اشتغلت بعمق على تحليل بنية
التوتاليتارية والعنف والإرهاب والديمقراطية . اتسمت كتاباتها بالعمق والدقة والمغايرة والأصالة ، وموافقها بالحدية
والصلابة ، مما أدخلها في صراعات فكرية وسياسية كثيرة ، وعرضها لانتقادات وتهديدات متواترة . أهم مؤلفاتها :
جذور التوتاليتارية ، ظرف الإنسان ، الإنسان في الأزمنة السوداء ، ايخمان في اورشليم ، عن الثورة ، عن العنف ،
حياة العقل .

•التغايير : التفكير السوسولوجي التقليدي وجد أن العنف هو التجلي الأوضح للسلطة (ميلز : العنف أقصى درجات
السلطة ، ماركس : السلطة قائمة على أدوات العنف المشروع) ، إلا أن أرندت لم تجد ذلك ، بل رأت أن السلطة
مغايرة للعنف ، ف السلطة جماعية (الجميع ضد الواحد) ، مرتبطة بالفعل المتناسق الجماعي ، مضادة للقدرة
الاستقلالية ، مبنية على المشروعية (التوجه نحو الماضي) ، بينما العنف فردي (الواحد ضد الجميع) ، ذو طبيعة
أتية ، مصمم وممارس لمضاعفة القدرة ، مبني على التبرير (التوجه نحو المستقبل.)
•الصراع : هناك صراع مرير متواصل بين السلطة والعنف . وبينما لا يمكن مواجهة العنف بالسلطة ، يمكن للعنف
تدمير السلطة ، إذ لا يتسبب إلا بعد أن تكون السلطة قد فقّدت ، وعندئذ يحصل الانقلاب : الوسائل تصبح غايات ،
فتمحق الوسائل التدميرية كل سلطة ، ويحدث تفتت داخلي ، يتجلى بشكل إرهاب دولتي في الهيمنة التوتاليتارية
، فيحدث اختفاء كلي للسلطة.

•التعارض : العنف والسلطة ليسا متصارعين فحسب ، بل متعارضين . فحين يحكم أحدهما حكماً مطلقاً يغيب الآخر
 . العنف يظهر حين تكون السلطة مهددة ، وينتهي - إن تَرَكَ - باختفاء السلطة . فبينما يمكن للعنف تدمير السلطة ،
لكنه عاجز - بالضرورة - عن خلق السلطة .

•الغضب : السلطة نتاج الحاجة للسيطرة ، بينما العنف نتاج الغضب . والغضب يبرز عند وجود احتمالات تغيير الأوضاع
البائسة ، فعلاً أو تخيلاً . وعند وجود أحداث وشروط اجتماعية مثيرة للغضب يكون ثمة إغراء كبير بضرورة اللجوء إلى
العنف بسبب قدرته التفجيرية وميزته كعمل فوري . وأخطر سماته وأكثرها جاذبية تتجلى في العنف الجماعي ،
حيث يتواكب الموت الذاتي مع إمكانية خلود الجماعة.

•العالم : العنف - لطبيعته الأتية - يبدو واقعياً بالنظر إلى فعاليته في الوصول إلى الغاية التي من شأنها أن تبرره .
وبما أننا حين نمارس فعلاً ما لا نكون أبدأً عارفين مسبقاً وعن يقين ما الذي ستكون عليه نتيجة ما نعمل ، يمكن
للعنف أن يبقى عقلانياً فقط عند متابعته لأهداف قصيرة المدى . فالعنف لا يعزز من شأن القضايا ولا التاريخ ولا
الثورات ولا التقدم أو التأخر ، ولكن بإمكانه أن يفيد في إضفاء طابع درامي على المطالب . فإن لم تتحقق الغايات
بشكل سريع لن تكون النتيجة فقط إلحاق الهزيمة بالتحرك كله ، بل كذلك إدخال ممارسة العنف في صلب الجسم
السياسي ككل . فممارسة العنف من شأنها أن تغيّر العالم باتجاه عالم أكثر عنفاً .

•البنية : كلما كبرت سيطرة النزعة البيروقراطية على الحياة ، كان إغراء ممارسة العنف أكبر . إذ لا يعود ثمة أحد
يمكن المناقشة معه ، أو طرف يمكن تقديم المطالب إليه ، أو شخص يمكن أن تمارس عليه ضغوطات قوية .
فالبيروقراطية هي نظام الحكم الذي يكون فيه كل واحد محروماً من الحرية السياسية ، ومن القدرة على الفعل ،
لأن حكم لا أحد هو لا حكم ، وحين يكون الجميع متساوين في عجزهم يكون لدينا طغيان من دون طاغية . ولذلك
نجد أن جزءاً كبيراً من الدوافع التي تحت اليوم على تمجيد العنف ، تنتج عن الاستلاب الحاد الذي يطال إمكانية
الفعل في العالم الحديث . إذ جعلنا قادرين على فعل المستحيل شرط أن نفقد القدرة على فعل الممكن ، وقادرين
على إنجاز أروع الأفعال شرط أن نصح عاجزين عن الاستجابة لاحتياجاتنا اليومية .

.....
بورديو : عُنف المُسلّمات

بيير بورديو (1930- 2002) (Pierre Bourdieu) ، منظرّ سوسولوجي فرنسي ، وأحد أبرز المراجع العالمية في علم
الاجتماع ، بدأ نجمه يبرغ بين المتخصصين انطلاقاً من الستينيات ، وخصوصاً بعد صدور كتابه (التمايز) في نهاية
السبعينيات ، وازدادت شهرته في آخر حياته بخروجه في مظاهرات ووقوفه مع فئات المحتجين والمضربين. اهتم
بتناول أنماط السيطرة الاجتماعية عبر تحليل مادي للإنتاجات الثقافية يكفل إبراز آليات إعادة الإنتاج المتعلقة بالبنيات
الاجتماعية، وذلك بواسطة علم اجتماعي كلي يستنفر كل العتاد المنهجي المتراكم في مختلف مجالات المعرفة
عبر التخصصات المتعددة. أهم مؤلفاته : الوَرثة ، إعادة الانتاج ، التمايز ، الحس العملي ، مسائل في علم الاجتماع ،
الإنسان الأكاديمي ، الإنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدغر ، قواعد الفن ، بؤس العالم ، الهيمنة الذكورية ، العنف
الرمزي ، توطئة لتحليل ذاتي .

•المجتمع : المجتمع فضاء للتمايز ، تكون فيه علاقات الهيمنة مستترة . ففي كل مجتمع مهيمون وخاضعون ، وفي
هذا الاختلاف يكمن أساس التنظيم الاجتماعي ، منتظماً حول بُعدين : الحجم الإجمالي للموارد المُملَكة ، وتوزيع
تلك الموارد بين رأسمال اقتصادي (ثروة ، رواتب ، مدخولات) ورأسمال ثقافي (معارف ، شهادات ، آداب سلوك) ،

والأول قطبية عمودية بينما الثاني أفقيّة . وكل فاعل اجتماعي يبحث عن الفائدة المتمثلة بالامتياز واعتراف الآخرين . وبالتالي تكون أحكامه انعكاس لوضعه في الفضاء الاجتماعي ، الذي يصنع الصلة بين البنيات الاجتماعية والتفضيلات الشخصية .

• البنية المعرفية : منطق التمييز يقر الهيمنة ، وما يهيئ قوة هذا التأثير هو أنه يغور في العمق الأكبر للحياة النفسية والأحاسد . فالبنيات الاجتماعية مطبوعة بشكل ما في البنيات العقلية ، فنحن مأخوذون باللعبة الاجتماعية ، بينما تُنسى اللعبة بحد ذاتها (منطق التمايز والهيمنة) . وهذه القدرة على التصرف دون التأمل تسمح بتجاوز الشرح بين الموضوعية والذاتية : البنيات الاجتماعية الموضوعية جزء لا يتجزأ من ذاتيتي ، وهذه تشارك بتلك . ولا توجد أفكار خالصة ، فالمُنتجات العقلية (الفلسفة والإيديولوجيات والأدب والخيال) هي انبثاق لبنيات اجتماعية في عصر ما . فالنظام الاجتماعي يخفي - عبر طقوسه وإستراتيجياته - ما يتأسس عليه بالذات : منطق السيطرة ونظام التمايز ، بقدر ما يقدم نفسه - عبر منظومة من الاعتقادات والعادات الراسخة - بوصفه بنية ثابتة وضرورية تملئها الطبيعة البشرية ، ويخلق صفة الطبيعي أو السوي أو المشروع على ما هو مكتسب واعتباطي ، أو على ما هو ثقافي ومؤسساتي . فكل الرموز والممارسات الثقافية ، بدءاً من التذوق الفني وأسلوب اللبس وعادات الأكل إلى الدين والفلسفة والعلوم واللغة ، تجسّد مصالح ، وتعمل على تعزيز التمايزات الاجتماعية .

• السلطة الرمزية : السلطة الرمزية سلطة لا مرئية ، ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها ، بل ويمارسونها . فالمنظومات الرمزية - باعتبارها أدوات للمعرفة والتواصل - لا يمكن أن تمارس سلطة وتفرض البنيات إلا لكونها تتحدد هي كذلك كبنيات ، لتكون السلطة الرمزية سلطة بناء الواقع عبر إقامة نظام معرفي ، لتحقيق المحافظة المنطقية المعبرة عن الوظيفة الاجتماعية للرمزية . كما أن المنظومات الرمزية - بما هي أدوات معرفة وتواصل تشكّل بنيات وتخضع العالم لبنيات - تؤدي وظيفة سياسية من حيث هي أدوات لفرض السيادة والمشروعية التي تساهم في ضمان هيمنة طبقة على أخرى . ولذلك نجد أن مختلف الطبقات والفئات تدخل في صراع رمزي للعمل على فرض التصور عن العالم الاجتماعي الملائم لمصالحها . تلك المصالح القابعة في اللاوعي الاجتماعي ، المكوّن من المصالح غير المحددة التي يتبعها الفاعلون عند مشاركتهم في النظام الاجتماعي . وعدم معرفة هذه المصالح المشتركة هي الشرط الضروري لممارسة السلطة ، وكشف تلك المصالح سيديم شرعية السلطة ، ويفتح المجال أمام تحولات في الترتيبات الاجتماعية القائمة .

• العنف الرمزي : كل سلطة عنف رمزي ، إذ تعمل على فرض وشرعنة الدلالات ، وتخفي علاقات القوة ، وتزيد القوة الرمزية بهدف الهيمنة . فيطبق المهيم على علاقات الهيمنة مقولات مبنية من وجهة نظر المهيمين ، كمقولات طبيعية ، مما يؤدي إلى نوع من التبخيس الذاتي ، لا بل التحقير الذاتي الممنهج . فالعنف الرمزي يتأسس بواسطة الانتساب الذي لا يستطيع المهيم عليه إلا منحه للمهيم ، وذلك عندما لا يحظى المهيم عليه - لأجل التفكير بذلك أو التفكير بنفسه أو التفكير بعلاقته مع المهيم - إلا بأدوات المعرفة المشتركة بينهم ، والتي هي ليست سوى الشكل المندمج لعلاقة الهيمنة التي تظهر هذه العلاقة على أنها طبيعية ، أو بتعبير آخر عندما تكون الترسيمات التي يستعملها المهيم عليه ليدرك نفسه وقيّمها أو ليفهم وقيم المهيم (رفيع - وضع ، ذكر - أنثى ،) هي النتائج لاستدماج التنضيدات ، طُبعت كذلك ، وأنتجت كينونته الاجتماعية . فقوة السلطة الرمزية تصدر عن إنكار العنف الذي تمارسه ، باستبدال العنف العاري بالعنف الرمزي ، الذي يستمد من التاريخ قوة ترسيخه ، ويتولد من التعمّد الذي يكرّس مؤسسة السلطة .

• المُسلّمات : المهيم عليه يساهم في تلك الهيمنة بسبب التركيب الاجتماعي لأدواته المعرفية ، أي لمقولات إدراكهم وتقديرهم للعالم الاجتماعي وأسس ترابطيته . فالعنف الرمزي يعتمد على الاعتقادات وإنتاج الاعتقادات ، لإنتاج فاعلين ذوي أنظمة إدراك وتقدير تتيح لهم فهم الإيعازات المسجّلة في وضعيّة أو خطاب ، ثم الخضوع له . اعتقادات متقنعة بالشرعية ، ومعدة كمسلّمات ، و متموضعة ضمن النظام الطبيعي للأشياء ، عبر ضبط اللاوعي للبنيات الذاتية والموضوعية التي تجعل ترسيخ الاعتقادات في الأذهان وإدماج التصنيفات الاجتماعية شيئاً ممكناً . ولعل أبرز أمثلة ذلك الهيمنة الذكورية ، فالحضور المعترف به كونياً للرجال ، يتأكد في موضوعية البنى الاجتماعية ونشاطات الإنتاج وإعادة الإنتاج ، والقائمة على تقسيم جنسي لعمل الإنتاج وإعادة الإنتاج البيولوجي والاجتماعي ، ويمنح للرجل النصيب الأوفر ، وكذلك في الترسيمات الملازمة لكل الهابتوسات . ولكون الترسيمات شكّلت بشروط مماثلة ، ومن ثم معطاة موضوعياً ، فإنها تشتغل باعتبارها قوالب لإحساسات وأفكار وأفعال كل أفراد المجتمع ، وعلى أنها إعلانية تاريخية . فحتى أفعال المعرفة عند النساء هي أفعال اعتراف عملية ، وانتساب معتقدي ، واعتقاد ليس عليه أن يفكر بنفسه ، ولا أن يؤكد نفسه باعتباره كذلك ، وهو الذي يصنع على هذا النحو العنف الرمزي الذي يتعرض له .

• التغيير الفكري والمُجموعي : أساس العنف الرمزي لا يكمن في الضمائر المخدوعة التي يكفي تنويرها ، بل في استعدادات مُعَيّرة على بنى الهيمنة التي هي نتاج . ولذلك لا نستطيع انتظار قطيعة علاقة التواطؤ التي يقيمها ضحايا الهيمنة الرمزية مع المهيمين ، إلا من تحوّل جذري للشروط الاجتماعية لإنتاج الاستعدادات التي تحمل المهيم عليهم على تبني وجهة نظر المهيمين أنفسهم في النظر إلى المهيمين وإلى أنفسهم .

فبعد أن بدأت أرندت بالسلطة السياسية لتنتهي عند البنية الاجتماعية المُنتجة للعنف عبر سلب إمكانية الفعل والعدالة الاجتماعية ، حفر بورديو أعمق في المنظومة الرمزية لتلك البنية ، ليكشف عن كونها متفوّمة بالعنف الرمزي ، لا تكفي بسلب القدرة على الفعل ، بل تعمل على سلب التفكير ، وتشكيل مُسلّمات زائفة بهدف إدامة الهيمنة الاجتماعية والسياسية والدينية والجنسية والاقتصادية . مما يؤكد أن العُنف الخارجي ليس إلا انعكاس جزئي للعنف الداخلي الرمزي ، وما لم يتم تفكيك ذلك العنف الرمزي ، لا يمكن خلق مجتمع إنساني . ولا يتم ذلك التفكيك دون مراجعة نقدية عميقة للمُسلّمات والبدهيّات المؤسسة للتمايزات الاعتباطية .

المراجع

أرندت ، حنه (١٩٩٢) في العنف . ترجمة : إبراهيم العريس . بيروت : دار الساقي.

بورديو ، بيار (٢٠٠٩) الهيمنة الذكورية . ترجمة : سلمان قعفراني . بيروت : المنظمة العربية للترجمة.
بورديو ، بيار وباسرون ، جان كلود (٢٠٠٧) إعادة الإنتاج : في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم . ترجمة : ماهر
تريمش . بيروت : المنظمة العربية للترجمة.
بورديو ، بيار (٢٠٠٧) الرمز والسلطة . ترجمة : عبد السلام بنعيد العالي . المغرب : دار توبقال للنشر.
بورديو ، بيار (٢٠١٢) مسائل في علم الاجتماع . ترجمة : هناء صبحي . أبو ظبي : كلمة.
حرب ، علي (٢٠٠١) أصنام النظرية وأطياف الحرية : نقد بورديو وتشومسكي . بيروت : المركز الثقافي العربي.
سكوت ، جون (٢٠٠٩) خمسون عاماً اجتماعياً أساسياً . ترجمة : محمود محمد حلمي . بيروت : الشبكة العربية
للأبحاث والدراسات.
شوفاليه ، ستيفان وشوفيري ، كريستيان (٢٠١٣) معجم بورديو . ترجمة : الزهرة إبراهيم . دمشق : النايا للدراسات
والنشر.
كابان ، فيليب ودورتيه ، جان فرانسوا (٢٠١٠) علم الاجتماع : من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية . ترجمة :
إياس حسن : دمشق : دار الفراق.

